صور من رد المظالم[1] في الإسلام

من عهد النبوة إلى عهد نور الدين محمود

أ/ زلماط إلياس، جامعة تيارت

إن من أهم الأهداف السامية التي من أجلها بعث الله الرسل، وأنزل من أجلها الكتب هي إقامة العدل بين الناس، وإذا كان العدل أساس الحياة، فعلى الحاكم أن يكون عادلا، يساوي بين رعيته، "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ"[2]، فلا يميل عن الحق لأجل منفعة شخصية أو هوى، قال تعالى عن نبيه داود عندما وفَّقه ليكون حاكما على قومه:" *يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ*" [3].

و قد جعل الله الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، وهو كالراعي الشفيق على إبله، و كالأب الحفي على ولده، وكالأم الحنونة الشفيقة، قال النبي ﷺ: "**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم عفيف متعفف ذو عيال**"[4]، كما أن الحاكم العدل يكون يوم القيامة تحت ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

ومن هذا المنطلق تتبدى إلينا طرح التساؤلات التالية: كيف كان أمر ردّ المظالم في الإسلام ؟ وما هي حاله في عهد الخلافة الراشدة ؟ وكيف أصبح زمن الدولة الأموية ثم العباسية ؟ وما هي صوره زمن الدولة النورية ؟ ولما كان الموضوع واسعا ارتأينا أن نقدم صورا موجزة عن كل زمن من هذه الأزمان.

رد المظالم والحث عليها في الإسلام:

وجدت نواة القضاء عند العرب في الجاهلية، فكان شيخ القبيلة يحكم بين أفرادها وفق التقاليد و العادات، إذ لم تكن ثمة قواعد يرتكز عليها إلا ما توارثوه من صفات أصطلح عليها بـ"العرف"، وقد أقر الإسلام بعضا من هذه الأحكام ، ورد أخرى . ومن الصور المشرقة في رد المظالم قبيل بزوغ شمس الإسلام ما عرف بـ: "حلف الفضول" فهو صورة دالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها، وكلحت شرورها، فلن تخلو من نفوس تهزها معاني النبل، وتستجيشها إلى النجدة والبر. ففي الجاهلية الغافلة نهض بعض الرجال من أولي الخير، وتواثقوا بينهم على إقرار العدالة وحرب المظالم، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل في أرض الحرم !.

قال ابن الأثير: "...ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف، فتحالفوا في دار عبدالله بن جدعان لشرفه وسنه. وكانوا بني هاشم، وبني المطلب، وبني أسد بن عبد العزَّى، وزهرة بن كلاب، وتَيْم بن مرة. فتحالفوا وتعاقدوا

ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه؛ وكانوا على من ظلمه، حتى تردَّ مظلمته فسمّت قريش ذلك الحلف "حلف الفضول" فشهده رسول الله ﷺ وقال -حين أرسله الله تعالى -: **لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ما أحبّ أن لي به حُمْر النَّعَم، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت**".[5]

إن بريق الفرح بهذا الحلف يظهر في ثنايا الكلمات التي عبر بها رسول الله ﷺ عنه، فإن هذه الحمية للحق ضدَّ أي ظالم مهما عزَّ، ومع أي مظلوم مهما هان، هي روح الإسلام الآمر بالمعروف، الناهي عن المنكر، الواقف عند حدود الله، ووظيفة الإسلام أن يحارب البغي في سياسات الأمم، وفي صلات الأفراد على سواء.

وقيل في سبب الحلف: إن رجلاً من "زبيد" أتى بتجارة إلى مكة، فاشتراها العاصي بن وائل السهمي، ثم حبس حقها وأبى أن يدفعه! فاستعدى عليه قبائل قريش والأحلاف فلم يكترثوا له، فوقف الغريب المظلوم عند الكعبة وأنشد:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدارِ والنَّفَرا!
ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحِجْر والحَجَرِ!
إن الحرامَ لَمَنْ تمت كرامته ولا حرام بثوب الفاجرِ الغدرِ[6]

وقد رويت قصص أخرى عن أسباب هذا الحلف، ومهما يكن فالإسلام قد أقره ونبينا ﷺ ثمنه واستبشر به . ومما يمكن أن نستشف مما سبق أن الإسلام يدعوا إلى الأخذ بالحق ورد المظالم مهما كان قائله أو الداعي إليه و لو كان كافرا و لو عدوا.

وعلى كل حال؛ لما نزلت الشريعة مفصلة الأحكام، في أمور الدين والدنيا، أمر الله نبيه الكريم أن يحكم بين الناس بما أراه الله، ونهاه أن يحكم وفق أهواء قومه وذلك في العديد من الآيات كقوله تعالى: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا". [7]

كان عليه الصلاة والسلام قاضيا، وكان للشريعة مبلغا، ولم يكن للمسلمين في عهده قاض سواه، ولما انتشرت الدعوة الإسلامية وكثر عدد المسلمين أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين المسلمين ومن ذلك حديثه لمعاذ بن جبل عندما ولاه اليمن فقال له " بم تقضي يا معاذ ؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد ؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد ؟ قال أجتهد برأيي فأقره على ذلك "[8] وبهذه التشريعات التي فرضت والسنن التي أتبعت أصبحت الدعوة إلى الإسلام من يوم أن خرجت من مكة مصابيح تكتسح الظلمة، وموازين تبدد المظالم، وتعطي كل ذي حق حقه فتنتشر الأمان في ديار الإسلام .

كان النبي ﷺ يتولى بنفسه رفع المظالم التي تصل إليه من الولاة ومن صور رد المظالم في عهده أن خالد بن الوليد قتل مقتلة في قبيلة جزيمة بعد أن أعلن أهلها الخضوع، فاستنكر النبي ﷺ ذلك وأرسل عليا بن أبي طالب رضي

الله عنه ليرفع عنها هذه المظلمة بأن دفع دية قتلاها على اعتبار أن القتل كان خطأ واتجه النبي ﷺ إلى ربه يقول: "**اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد**".[9]

رد المظالم عهد الخلفاء الراشدين: بعد أن تمت بيعة أبي بكر قام في الناس خطيبا " **يا أيها الناس قد وليت عليكم و لست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدفت فقوموني، الصدق أمانة و الكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه , والقوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله** ..."[10]

حددت هذه الخطبة سبيل أبي بكر القويم ونهجه المستقيم الذي سار عليه حتى لقي ربه، ولا أدل على ذلك إسناده القضاء في المدينة إلى عمر، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان. .ولما انتشر الإسلام في عهد عمر و اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، استدعى ذلك تعيين القضاة [11] يتولون مع الخليفة الفصل في بعض المنازعات، طبقا لأحكام الكتاب والسنة والقياس، كما قرر ذلك النبي ﷺ، وكان يراعى في اختيار القاضي في عهد الخلفاء الراشدين: غزارة العلم و التقوى و الورع، و العدل . وتميز العهد الراشدي أن الناس كانوا يرضخون للحكم فور صدوره و لا يتجاحدون في ما قضي به، بل أنهم كانوا يسارعون إلى تنفيذ الحكم في حضرة القاضي[12] .

كان عمر رضي الله عنه من أوضح الخلفاء الراشدين في تتبع المظالم من الولاة أو الجند على الرعية، وكان أول ما خطب به يوم توليه الخلافة قوله:"**إني لم أستعمل عليكم عمالا ليضربوا أبشاركم - جلودكم - وليشتموا أعراضكم و يأخذوا أموالكم، ولكني استعملتهم عليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم – فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذنَ له علي ليرفعها إلي حتى أقصه منه**"[13] وقد سار على هذا النهج في متابعة مظالم الولاة، وترجع شدته على ولاته إلى قناعته أنه لا سبيل إلى كفالة الحياة الكريمة لرعيته إلا أن يسوي العدل بين الحاكم و المحكوم، والغني والفقير والأمير والمأمور، وكان يقول: "**إن الناس لا يزالون مستقيمين ما استقامت لهم أئمة الهدى** " لهذا كان رضي الله عنه شديدا على ولاته، فالحكم يغريهم بالبطش إن لم يجدوا من يردعهم .

وقال رضي الله عنه أيضا :"**الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإذا رتع الإمام رتعوا** "، ولهذا كان يرى مكان عماله منه مكان الرعية من عماله –هو مسؤول عنهم كما أن العامل مسؤول عمن تولى عليهم – فإذا ظلم العامل الرعية وجب أن يقتص منهم، كما وجب أن يقتص من أي فرد في المدينة ظلم غيره، وقد عبر عن شعوره بهذه التبعة بقوله: " **أي عامل ظلم أحدا فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته** " [14].

فمع هذا يصبح رد المظالم مطلوبا مرغوبا، فهكذا كانت سيرة هذا الرجل حتى قيل فيه: **حكمتَ فعدلتَ فأمنتَ فنمتَ**، هذا هو حس المحسن في دنياه الذي ينتظر آخرته، و الذي يحضر نفسه ليوم الرحيل، ليقف بين يدي الجبار، و سيوقفه ليوم الحساب، ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذا عندما يكرم الله المسلم بتفتح البصيرة ويقضة القلب يحس بعبوديته لله، وأن صدق هذه العبودية كائن في تسخير الجوارح في طاعة الله، ورد المظالم لذا تجده دائم الفكرة ينظر فيعتبر لا تبطره النعمة، ولا تصرفه الدنيا

وملذاتها عن ما أمره الله به، و العمل للآخرة التي هي خير وأبقى، وتراه حين تراه لا يفتر عن ذكر الله والتفكر في آلائه، يذكر الموت فلا يغتر بالحياة الدنيا، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين في دار كرامته فيصغر في عينه كل ما يعظمه أولئك الذين غرهم بالله الغرور .

وقد بلغ من شدة عمر في محاسبة عماله أنه كان يعزل أحدهم أحيانا لشبهة لا يقطع بها دليل، وقد يعزل لريبة لا تبلغ حد الشبهة، فقد سئل في ذلك يوما فقال :"**هان شيء أصلح به قوما أن أبدلهم أمير مكان أمير** " ومن صور ذلك أنه: "**عزل عن بعض ولاية الشام شرحبيل بن حسنة واستعمل بدلا منه معاوية بن أبي سفيان واعتذر على رؤوس الأشهاد أنه لم يعزله عن شيء هجنه به بل أراد رجلا أقوى من رجل** "[15].

وهناك أيضا صور أخرى من رد المظالم زمن عمر نذكر بعضا منها، وهي: أن موسم الحج كان في عهد عمر مؤتمرا لمحاسبة الولاة، فكان يجمعهم في كل عام يسألهم عن أعمالهم و يسأل الناس عنهم ليرى مدى دقتهم بالاضطلاع بواجباتهم وتنزههم حين أدائها عن الإفادة لأنفسهم أو لذويهم [16].

وقد خطب عمر رضي الله عنه في ولاته في موسم الحج فقال: "**يا أيها الناس إني لم أبعث عليكم عمالي ليصيبوا من أبشاركم و لا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد، فقال: يا أمير المؤمنين إن عاملك فلان ضربني مائة سوط، قال فيمَ ضربته؟ قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه . قال: دونكم فأرضوه فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين، وقال: من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي إلا أن يرفعها علي حتى أقصه منه، فقيل: أرأيت إن أدب أميرا رجلا من رعيته أقصه منه، قال: ومالي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه.**[17] .

وكان يرى رضي الله عنه من الاقتصاص من العمال ترويضا لهم على الطاعة وترك التبجح والادّلال على الرعية [18].

إضافة لما تقدم نذكر صورة أخرى ، أن عمر بن الخطاب كتب إلى فيروز الديلمي رضي الله عنهما: " **أما بعد فقد بلغني أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل، فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم على بركة الله فاغز في سبيل الله** "، فقدم فيروز فاستأذن على عمر رضي الله عنهما فأذن به فزاحمه فتى من قريش، فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي فدخل القرشي على عمر مستدمي فقال له عمر من فعل بك؟ قال: فيروز وهو على الباب . فأذن لفيروز بالدخول فدخل فقال: ما هذا يا فيروز ؟ قال: يا أمير المؤمنين إنا كنا حديثي عهد بملك، إنك كتبت إلي ولم تكتب إليه، وأذنت لي بالدخول ولم تأذن إليه فأراد أن يدخل في إذني قبلي فكان مني ما قد أخبرك . قال عمر: القصاص . قال فيروز: لا بد ؟!. قال: لا بد .

فجثى فيروز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه، فقال له عمر رضي الله عنه: على رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ: سمعت رسول ﷺ ذات غداة وهو يقول: قتل الليلة الأسود العنسي الكذاب، قتله

العبد الصالح فيروز الديلمي، أفتَراك مقتصاً منه بعد أن سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال الفتى: قد عفوت عنه بعد أن أخبرتني عن رسول الله ﷺ بهذا. فقال فيروز لعمر: أفتَرى هذا مخرجي مما صنعت إقراري له وعفوه غير مستكره ؟ قال: نعم، قال فيروز: فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألفاً من مالي هبة له " .هذه من أبلغ الصور التي مثلها الصحابة في إحقاق الحق والانصياع له والعمل به ورد المظالم، حتى بلغوا بها درجات سامقة من الأخلاق التي وسمت سيرتهم العطرة التي لا نظائر لها .

أما عن سيرة ثالث الخلفاء عثمان بن عفان رضي الله عنه: فقد حافظ على الأوضاع التي وضعها عمر، واستشار من استشاره عمر، وقد كان في رد المظالم كصاحبيه لا يسكت عن حد من الحدود ولا يتساهل مع من يرتكب المحظورات. فكتب في الأمصار: أن توافيه العمال في كل موسم ومن يشكوهم، وكتب إلى الناس والأمصار "**أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ولا يذل المؤمن نفسه فإني مع الضعيف على القوي مادام مظلوما إن شاء الله** "[19] .ويمكننا أخذ صورة عن رد المظالم ومحاسبة العمال زمن عثمان مما يلي:

فقد ابتاع عثمان حمدان بن أبان وعلمه الكتابة واتخذه كاتبا، ثم وجد عليه؛ لأنه وجهه للمسألة عما رفع عن الوليد بن عقبة فارتشى منه، وكذب ما قيل فيه، فتيقن عثمان صحة ذلك، فقال عثمان: "**لا تساكنّي في بلد فرحل عنه ونزل البصرة**".[20]

ومهما يكن فإن عثمان رضي الله عنه حاسب واليه وعاقبه العقاب الذي يستحقه ، لكن ما آخذه به بعض العوام وثربوه عليه، أنه كان أقل حزما من عمر رضي الله عنه ، ونشير هنا إلى أن كثيرا من الافتراءات التي قيلت في عثمان، و التي روَّجها بعض ضعاف النفوس سفها، و بعض أعداء الإسلام عمدا ونكاية في المسلمين وتهديدا لأمنهم واستقرارهم، و التي كان عثمان بريئا منها، هي التي سببت الفتة التي حدثت و التي أنتجت مقتله رضي الله عنه .

أما ما يروى عن سيرة آخر الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في رد المظالم ما جاء عن الماوردي، أن إمامة علي احتاج رضي الله عنه حين تأخرت إمامته واختلط الناس فيها وتجاوروا إلى فصل الصرامة في السياسة وزيادة تيقظ في وصول الأحكام إلى غوامض، فكان أول من سلك هذه الطريقة واستقل بها ولم يخرج فيها إلى نظر المظالم المحض للاستغناء عنه. جاء في قول النويري في نهاية الأرب: لم ينتدب أحد من الخلفاء للمظالم، وإنما كانت المنازعات تجري بين الناس فيفصلها حكم القضاة[21].

وقد ولى الخلافة أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه، واقترنت توليته التي نجمت عن قتل عثمان وما تبعها من أحداث شقت صف المسلمين وفرقت كلمتهم، وأصبحت مواجهة تلك الأحداث لرأب الصدع شغله الشاغل، ولم يكن هذا الصراع الدامي في عهد على رضي الله عنه مانعًا له من أن يعطى للقضاء نصيبًا من الاهتمام به وتنظيمه، ويدل على هذا رسالته التي أرسلها إلى الأشتر النخعي واليه على مصر حين كانت تابعة لحكمه، وفيها يقول: **ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى**

في الزلة، ولا يحصر في الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تستشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرمًا بمراجعة الخصوم، وأصبرهم على كشف الأمور، وأصرمهم على اتضاح الحكم، ممن لا يزدهيه إطراء، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل، ثم أكثر من تعاهد قضائه، وأفسح له في البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال عندك . [22]

وفي هذه الرسالة أيضًا: **أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيّتك، فإنك إلا تفعل تَظْلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته، وكان لله حربًا، حتى ينزع أو يتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد**[23].

ونلاحظ أن هذا العهد تضمن صفات القاضي، كما تضمن حقوقه وواجباته، والذي يتأمل في الذي كتبه أمير المؤمنين على رضي الله عنه لواليه على مصر، يعجب لهذا العهد الذي كتب عام 40هـ، أو حولها، في وقت لم يكن للعرب فيه أي اتصال بالحضارات الأخرى بعد، وكيف كان العقل السليم الذي ينظر بنور الله قادرًا على تفتيق المعاني، ووضع أمور الدولة في نصابها، وهذه النظرات من أمير المؤمنين علي في إنصاف الرعية، وتجنب ظلمها كانت فيما بعد عمادًا في تنظيم ولاية المظالم[24].

ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاء ما يقال أنه كتبه علي بن أبى طالب إلى أحد عماله، ولعل رسالة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه إلى واليه في مصر، التي تُبيِّن مدى الحذر والحيطة في انتقاء القضاة، تشير أيضا إلى الخصائص التي تُميِّز شخصية القاضي، ويُنتقى على أساسها. إذ يقول رضي الله تعالى عنه: "...**ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك، ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الذلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تستشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم إلى أقصاه، أوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلّهم تَبرُّما بمراجعة الخصوم، وأصبرهم على كشف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم، ممن لا يزد فيه المراء، ولا يستمليه إغراء، وأولئك قليل**.." [25].

ولعل في الصورة التالية دليلا على مبلغ حرص الخلفاء الراشدين على العدل و المساواة بين الخصوم مهما كانت درجاتهم ودياناتهم، فقد حدث في عهد عمر أن يهوديا شكى إليه عليا، فلما مثل كلاهما بين يدي الخليفة خاطب عمر اليهودي باسمه بينما وجه الخطاب إلى علي بكنيته إذ ناداه كما جرت العادة (يا أبا الحسن) فغضب علي فقال له عمر: **أكرهت أن يكون خصمك يهوديا و أن تمثل معه أمام القضاء على سواء ؟، فقال له علي: لا و لكنني غضبت لأنك لم تسوِّ بيني وبينه بل فضلتني عليه إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتني بكنيتي**[26] [27].

تلك إذًا بعض الصور في حياة الخلفاء الراشدين التي تشهد بعدلهم وحرصهم على قمع الولاة وكشف أحوال المعتدين منهم مهما اختلفت صور الظلم وتنوعت أساليبه.

وإذا تقرر ذلك فقول الماوردي ومن تبعه (أنه لم يندب للمظالم من الخلفاء الأربعة أحد ، لأنهم في الصدر الأول مع ظهور الدين عليهم بين من يقوده التناصف إلى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم، فإنما كانت المنازعات تجري في أمور مشتبهة يوضحها حكم القضاء، فأن تجور من جفاة أعرابهم متجور ثناه الوعظ أن يدبر وقاده العنف أن يحسن، فاقتصر خلفاء السلف على فصل التشاجر بينهم بالحكم والقضاء تعيينا للحق في جهته لانقيادهم إلى التزامه.. إلى أن قال: فكان أول من أفرد للظلامات يوما يتصفح قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر عبد الملك بن مروان)[28].

رد المظالم عهد الدولة الأموية:

كانت الدولة الأموية لا تستعمل من العمال إلا من تثبت كفايته ونجدته في تأييد سلطانها يمحضونها النصح ولا ينقضون عن تعهد حال الناس وكشف ظلاماتهم واتخاذ الطرق المفضية إلى ما فيه راحتهم، وقد أوصى معاوية أحد أقرابه ممن استعمله فقال: "**لا تبيعن كثيرا بقليل وخذ لنفسك من نفسك واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخف عليك المؤونة وعلينا منك وافتح بابك للناس** ". وقال لآخر :" **إذا أعطيت عهدا فوفٍّ به ولا تخرجن منك أمرا حتى تبرمه، فإذا خرج فلا يرون عليك، ولا تطمع أحدا في غير حقه، ولا تؤيِّسن أحدا من حق له**"[29]

تلك قواعد وضعها معاوية لعماله وفيها شيء من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض وإرضاء كل واحد بحقه وتوفير ثقة الرعايا بولاتهم . ولنضرب صفحا عن صورة المجتمع الأموي، و نجس نبضه أيام معاوية رضي الله عنه من خلال ما روى عن أحد العلماء لما سئل: كيف تركت الناس؟، فقال :"**تركتهم بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهي**"، وهذا لا يعطينا الصورة الصحيحة البينة؛ لأنه كان يريد إدارة الملك على عهد ابن أبي سفيان كما كانت في عهد عمر بن الخطاب .

ومن الإنصاف القول بأن لكل زمن طريقته ورجاله، وأرباب الصلاح يتوهمون أن العدل المطلق يستفيض في الناس بأمر من الخليفة أو بعناية عماله وحدهم، وأن كل خير لا يأتي إلا من السلطان، أما المحكومون فليس لهم كبير أثر في إفاضة العدل في العالم ولا تلحق بهم تبعة . ومن الإنصاف أيضا أن نذكر ما جاء على لسان الطبري أن معاوية لما حضره الموت أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال، كأنه أراد أن يطيب له الباقي لأن عمر قاسم عماله.[30]

ولما تجاهر الناس بالظلم والتغالب، ولم تعد تكفيهم زواجر العظة من التمانع والتجاذب احتاجوا في ردع المتغلبين وأنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذي يمتزج فيه قوة السلطان بنصفة القضاء، فكان أول من أفرد للظلامات يوما معلوما يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر هو عبد الملك بن مروان65هـ 86هـ/685م -705م، وكان إذا وقف منها على مشكل رده إلى قاضيه أبي إدريس الخولاني فينفذ فيه الحكم،

فكان أبو إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الآمر [31]، وقد قام للجلوس عبد الملك بن مروان بنفسه حتى يرتدع الناس وكان عبد الملك حين يجلس للمظالم يستعد لها، فكان يلبس جبة ورداء، كما يقام على رأسه بالسيوف، ويأمر شخصاً من هؤلاء القائمين على رأسه لإنشاد شعر لسعيه بن عُريض وهو:

إنا إذا ما دواعي الهوى وأنصت السامع للقائل
واصطرع القوم بألبابهم نقضي بحكم عادل فاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا نلفظ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل[32]

ثم يجتهد عبد الملك في الحق بين الخصمين، وهذا يعني أن جلوس الخليفة عبد الملك للمظالم كان جلوساً منظماً ومتكاملاً، ولا بد أن جلسات الخليفة هذه كان يحضرها كتاب يدونون هذه الجلسات وأحكامها، كما أن تحديد الخليفة عبد الملك يوماً معيناً من كل أسبوع للنظر في المظالم، وتعيين قاضٍ لذلك وتعيين من يقوم على رأسه بالسيوف وهم من الحماة والأعوان، وارتداء الخليفة ملابس معينة، وانعقاد هذه الجلسات في مكان محدد، كل هذا يعني وجود الأسس لديوان مستقل لكل ذلك يمكننا أن نقول: بأن الخليفة عبد الملك ربما كان أول من أسس ديوان النظر في المظالم في الدولة .[33]، لكن هناك من الباحثين من يرى أن عبد الملك أسس ديوان المظالم هذا ليبين للناس أنه قائم على رد المظالم ، وقد أسس هذا الديوان لقضايا بذاتها يهمه أمرها وفي المقابل سمح للحجاج وهو واليه أن يتصرف بكل حرية، فأوقع المظالم وهو الذي فسقه العلماء [34].

وقد دافع عبد الملك بن مروان عن سياسته يوما فقال: **لو أنصفتمونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة أبي بكر وعمر، نسأل الله أن يعين كلا على كل**[35]، ويبدو أن كلام عبد الملك لو تدبره العاقل الأريب، لوجده يحتوي على شيء من الحق، وهو أن العهد تغير والفتن لا تزال نيرانها تشتعل، فأنى لحاكم عادل أن ينصف ويرد مظالم الناس، ومع هذا لا نلقي كل اللوم على العصر ونغفل دور السلطان الذي بإمكانه رد كثير من المظالم، كيف لا وهاهو عمر بن عبد العزيز فعل ذلك .

يمكن القول أنه متى أراد الله بالعبد كمالا وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له قابل له قد هيئ له، فإذا استفرغ وسعه برز على غيره وفاق الناس فيه، كما قيل:

مازال يسبق حتى قال حاسده هذا طريق إلى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذي يشكو وجع البطن مثلا إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به، وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه، فهذا سليمان بن عبد الملك لما أراد الله به خيرا وفقه لاتخاذ بطانة الخير التي تسلك به سبل النجاة.

وقد عد المؤرخ أبو زرعة الدمشقي خلافة سليمان، وخلافة عمر بن عبد العزيز واحدة، حيث يقول: **كانت خلافة سليمان بن عبد الملك كأنها خلافة عمر بن عبد العزيز، كان إذا أراد شيئاً قال له: ما تقول يا أبا حفص؟ قالا جميعاً**[36]. وأما ابن قتيبة فيقول: **افتتح بخير وختم بخير؛ لأنه رد المظالم إلى أهلها، ورد المسيرين وأخرج المسجونين الذين كانوا بالبصرة واستخلف عمر بن عبد العزيز وأغزى أخاه الصائفة حتى بلغ القسطنطينية، فأقام بها حتى مات**[37]. ووصفه ابن كثير بقوله: **يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية رحمه الله**[38].

ومن صور حث عمر بن عبد العزيز سليمان على رد المظالم ما ذكر عنهما أنه خرج سليمان ومعه عمر إلى البوادي، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر: إنما هذا صوت نعمة فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فقال سليمان: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها، فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو؟ قال: قوم صحبوك في مظالم لم يصلوا إليك، فجلس سليمان فرد المظالم[39]، ويظهر عند عمر وضوح فقه ترتيب الأولويات فرد المظالم مقدم على بذل الصدقات.

وقبل وفاة سليمان بن عبد الملك أوصى بالخلافة لعمر بن عبد العزيز صاحب السيرة العطرة التي ملأت كتب التاريخ حتى عدها البعض شبيهة لسيرة الخلفاء الراشدين، وما بلغه الحكم في عصره إلى تلك القمة العظيمة السامقة –على قصر المدة التي قضاها فيه – إنما كان ثمرة من ثمرات إيمانه وصدقه وتقواه، بعيدا عن شهوة الحكم ورغبة السلطان، وحرصه أن يكون في حكمه للرعية على السنن التي سلكته الخلافة الراشدة تحقيقا لعبودية الله في الأرض.

وقد وصفه النويري في رده المظالم بقوله: **ثم زاد من جور الولاة وظلم العتاة واغتصاب الأموال في دولة بني أمية، ما لم يكفهم عنه إلا أقوى الأيدي و أنفذ الأوامر، فكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله أول من راعى سنن العدالة وأعادها وندب نفسه للنظر في المظالم وردها** [40].

ثم بدأ عمله في خلافته برد المظالم بنفسه فنظر إلى ما في يديه من أراضي أو متاع فخرج منه ورده إلى المسلمين، ثم ثنى بأهل بيته ثم جلس لنظر في المظالم. وسأقتصر على ضرب مثالين فقط من رد المظالم في خلافته لضيق المقام:

الأول: ما روا ه الفرات بن السائب قال:" كان عند فاطمة بنت عبد الملك بن مروان جوهر جليل وهبها أبوها و لم يكن لأحد مثله، و كانت تحت عمر بن عبد العزيز فلما ولي الخلافة قال لها: اختاري إما أن تردي جوهرك وحليك إلى بيت مال المسلمين، و إما أن تأذني لي في فراقك فإني أكره أن اجتمع أنا و أنت و هو في بيت واحد، فقالت: بل أختارك عليه و على أضعافه لو كان لي، و أمرت به فحمل إلى بيت المال، فلما هلك عمر و استخلف يزيد بن عبد الملك قال لفاطمة أخته إن شئت رددته عليك، قالت: فإني لا أشاء ذلك طبت عنه نفسا في حياة عمر و أرجع فيه بعد موته!! لا و الله أبدا".[41]

والثاني: ما روى سهيل بن يحيى المروزي عن أبيه عن عبد العزيز عن عمر بن عبد العزيز قال لما دفن سليمان، صعد عمر على المنبر فقال: إني قد خلعت ما في رقبتي من بيعتكم، فصاح الناس صيحة واحدة قد اخترناك، فنزل و دخل و أمر بالستور فهتكت و الثياب التي كانت تبسط للخلفاء فحملت إلى بيت المال، ثم خرج و نادى مناديه من كانت له مظلمة من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين فليحضر، فقام رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس و اللحية فقال: أسألك كتاب الله، قال :ما شأنك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني ضيعتي، و العباس جالس فقال عمر: ما تقول يا عباس؟، قال: أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد و كتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول أنت أيها الذمي؟، قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، فقال عمر: إيها لعمري إن كتاب الله لأحق أن يتبع من كتاب الوليد، أردد عليه يا عباس ضيعته، فجعل لا يدع شيئا مما كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة.[42]

وتتابع الناس في رد المظالم إليه، فما رجعت إليه مظلمة إلا ردها سواء كانت في يده أوفي يد غيره حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم مما صار إليه ظلما، وكان يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة وكان يكتفي باليسير، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ولم يكلفه تحقيق البينة لما يعرف من ظلم الولاة قبله للناس، وقد ذكروا أنه أنفذ بيت مال العراق في رد المظالم حتى حمل إليه من الشام [43].

ولقد واجه عمر بن عبد العزيز جبروت الظلام من جراء رد المظالم وقد خاف عليه مستشاريه من أهل الخير حتى قيل له -وقد شدد عليهم -:" **إنا نخاف عليك العواقب من ردها، فقال: كل يوم أخافه وأتقيه غير يوم القيامة لا وقيته** ".

ومن صور مواجهته لهؤلاء الأمراء رده على كتاب عمر بن الوليد بن عبد الملك الذي رواه ابن عبد الحكم فقال: و كتب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز لما أخذ بني مروان برد المظالم كتابا أغلظ له فيه، من جملته أنك أزريت على كل من كان قبلك من الخلفاء و عبتهم و سرت بغير سيرتهم بغضا لهم و شنآنا لمن بعدهم من أولادهم، و قطعت ما أمر الله به أن يوصل و عمدت إلى أموال قريش و مواريثهم فأدخلتها بيت المال جورا و عدوانا فاتق الله يا ابن عبد العزيز و راقبه، فإنك خصصت أهل بيتك بالظلم و الجور، والذي خص محمد ﷺ بما خصه به لقد ازددت من الله بعدا بولايتك هذه التي زعمت أنها عليك بلاء فأقصر عن بعض ما صنعت، و اعلم أنك بعين جبار عزيز و في قبضته و لن يتركك على ما أنت عليه .

فكتب عمر جوابه فقال: من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، أما بعد: فقد بلغني كتابك وسأجيبك بنحو منه، أما أول شأنك يا ابن الوليد كما زعم، فأمك نباتة أمة السكون كانت تطوف في سوق حمص وتدخل في حوانيتها ثم الله أعلم بها اشتراها ذبيان بن ذبيان من في‌ء المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس المحمول وبئس المولود، ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا، تزعم أني من الظالمين ؛إذ حرمتك وأهل بيتك في‌ء الله عز وجل الذي فيه حق القرابة والمساكين، والأرامل وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من

استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين، تحكم بينهم برأيك ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده، فويل لك وويل لأبيك، ما أكثر خصماءكما يوم القيامة، وكيف ينجو أبوك من خصمائه وإن أظلم مني وأترك لعهد الله ؛ من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب يسفك الدم الحرام، ويأخذ المال الحرام، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من استعمل قرة بن شريك أعرابيا جافيا على مصر وأذن له في المعازف واللهو والشرب، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهما في خمس العرب فرويدا يا ابن نباتة فلو التقت حلقتا البطان ورد الفيء إلى أهله لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتكم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيات الطريق، وما وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أكون رأيته بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل، وإن لكل فيك حقا والسلام علينا ولا ينال سلام الله الظالمين [44].

ولم يهدأ للأمراء بال حتى سمّوه فمات على إثر ذلك كما جاء على لسان الذهبي عند ذكر سيرته فقال: **" كان حنيفا زاهدا مع الخلافة ناطقا بالحق مع قلة المعينين وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملوه وكرهوا محاققته لهم، وأخذه كثيرا مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق، فما زالو به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة و توفي سنة 101هـ ودامت خلافته سنتين و خمسة أشهر و أياما "**[45].

ولم يكد عمر بن عبد العزيز يلق ربه حتى عادت الدولة إلى سابق عهدها إلا قليلا، وعزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر بن عبد العزيز جميعا، ثم أهملت سنة رد المظالم إلى أن آل الحكم إلى آل العباس فأحيوا هذه السنة.

رد المظالم عهد بني العباس: إن جلوس الملك لكشف قصص المظلومين والفصل بين المتنازعين من أعظم قوانين العدل الذي لا يعم الصلاح إلا بمراعاته ولا يتم التناصف إلا به.

فهذا أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس كان يهتم باختيار عماله ويقول: **ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أعف منهم، قيل له: يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال: هم أركان الملك ولا يصح الملك إلا بهم... أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لائمة لائم، وآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، و الثالث صاحب خراج يستعصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني، و الرابع صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة**[46].

وإليك صورة من صور انقياد أبي جعفر المنصور للمواعظ في رد المظالم:

ما روي في حكاية الرجل الذي سمعه المنصور، وهو يطوف بالبيت آخر الليل، ويقول: اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحال بين الحق وأهله من الظلم والقمع، فسأله عن مراده بذلك: فقال له: ذلك الرجل الذي دخله الطمع، حتى حال بينه وبين الحق، وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد أنت، قال له: ويحك كيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء على يدي، والحلو والحامض في قبضتي، قال: وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين، إن الله استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجير والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجبه معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها عنهم، وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها، واتخذت وزراء وأعواناً ظلمة. إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والسلاح، وأمرت أن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان و فلان نفر سميتهم، ولم تأمر إيصال

المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العاري ولا الضعيف الفقير، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق. فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرتهم ألا يحجبوا عنك. تجبي الأموال ولا تقسمها، قالوا: هذا قد خان الله، فمالنا لا نخونه، وقد سخر لنا. فأتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل، فيخالف لهم أمراً، إلا أقصوه، حتى تسقط منزلته، ويصغر قدره.

فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم، وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليتقربوا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك أهل الثروة والقدرة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم من الرعية، فامتلأت بلاد الله تعالى بالظلم بغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك، وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول، وإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك، وجدك قد نهيت عن ذلك، ووضعت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك الرجل، وبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته، وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة، لم يمكنه ما يريد، خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه، ويلوذ به، ويشكو ويستغيث، وهو يدفعه ويحتال عليه، فإذا جهدوا وظهرت صرخ بين يديك، فيضرب ضرباً مبرحاً ليكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر، فلا تنكر، ولا تغير، فما بقاء الإسلام وأهله على هذا.

وقد كانت بنو أمية والعرب لا تنتهي إليهم المظالم، إلا رفعت ظلامته إليه فينتصف، ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم، فينصف. ألا وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين، وبها ملك فقدمتها مرة، وقد ذهب سمع ملكهم، فجعل يبكي، فقال له وزراؤه: ما لك تبكي لا أبكت عيناك، فقال: أما إني لست أبكي على المصيبة التي نزلت بي ولكن أبكي المظلوم يصرخ بالباب فما نسمع صوته.

ثم قال: أما إن كان ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس لا يلبس ثوباً أحمر إلا المظلوم. فكان يركب الفيل في طريق النهار، هل يرى مظلوماً، فينصف، هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين، ورقته على شح نفسه في ملكه، وأنت مؤمن بالله وابن عم رسول الله، لا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك.

ثم مضى في موعظته حتى بكى المنصور بكاءً شديداً وارتفع صوته ثم قال: ليتني لم أخلق، ولم أكن شيئاً. ثم قال: كيف احتيالي فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائناً؟ قال: يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين.

قال: ومن هم؟ قال: العلماء، قال: قد فروا مني، قال: هربوا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقتك من قبل عمالك، قال: ولكن أفتح الأبواب، وسهل الحجاب وأقتص للمظلوم من الظالم وامنع المظالم، وخذ الشيء مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن لك أن من هرب منك أن يأتيك، فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك، فقال المنصور: **اللهم وفقني أن أعمل بما قال هذا الرجل**[47].

يقتنص مما سبق أن الطرق إلى مرضات الله مفتحة الأبواب وأن من يرد الله به خيرا يجعل له واعظا من نفسه، وعندها لا يقرب إلا بطانة الخير التي تذكره إذا غفل وتنصحه إذا مال عن الصراط السوي .

وقد رد المنصور الكثير من المظالم، أما أول من قيل أنه جلس للمظالم من بني العباس الخليفة المهدي، فكان يجلس بنفسه ينظر في ظلامات الناس وبين يديه القضاة، فيزيل عنهم مظالمهم، وكان عادلا في خلافته حتى يقال إنه كان في بني العباس كعمر بن عبد العزيز في بني أمية، وكان إذا جلس للمظالم يقول أدخلوا علي القضاة، فلو لم يكن ردي المظالم إلا للحياء منهم لكفى [48].

ويروى عنه أيضا: أنه كان يجلس للمظالم وتدخل القصص عليه، فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص، وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولا فأول، فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض .[49]

ومن صور رد المظالم في زمن الدولة العباسية عهد المأمون بن هارون الرشيد التي رواها الماوردي فقال: ومن أخبار المأمون عبد الله بن الرشيد هارون العباسي، أنه كان يجلس للمظالم في يوم الأحد، فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة في ثياب رثة فقالت:

يا خير نتصف يهدي له الرشد ... ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد الملك أرملة ... عدا عليها فما تقوى به أسد
فابتز منها ضياعا بعد منعتها ... لما تفرق عنها الأهل والولد

فأطرق المأمون يسيرا ثم رفع رأسه، وقال:

من دون ما قلت عيل الصبر والجلد ... وأقرح القلب هذا الحزن والكمد
هذا أوان صلاة الظهر فانصرفي ... وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
المجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ... أنصفك منه وإلا المجلس الأحد

فانصرفت، وحضرت في يوم الأحد أول الناس، فقال لها المأمون: من خصمك؟ فقالت القائم على رأسك، العباس بن أمير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم، وقيل بل قاله لوزيره أحمد بن أبي خالد: أجلسها معه وانظر ما بينهما، فأجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون، فجعل كلامها يعلو، فزجرها بعض حجابه، فقال: دعها فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه، فأمر برد ضياعها عليها [50] .

ما أجمل القوة العادلة عندما تساب بردا وسلاما فتحسم المظالم النازلة على الأفئدة الكسيرة، وتطفئ الآلام التي برحت بالمظلومين والمستضعفين، إنه لا يعرف فضل القوة المؤيدة للحق إلا من شقى تحت وطأة الطغيان دهرا طويلا، إنه يستقبل طلائعها استقبال المقرور للدفء، واستقبال الهيمان للإلف، إنه يعتبر زحفها بوارق الصبح تشق جنح الظلام، ومعالم اليقظة تغزو البصائر والأبصار.

وقيل :" **جلس لكشف المظالم من خلفاء بني العباس المهدي حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها، ثم جلس لها من بعده الهادي، ثم احتجب الخلفاء لتظاهر الترك وغيرهم عليهم ودفعوا أمر المظالم إلى وزرائهم**"[51].

وخلال العصور العباسية المتأخرة، أصبحت صلاحيات الوزير واسعة لدرجة أنه أخذ ينظر في المظالم بعد أن كانت من صلاحيات الخليفة العباسي، فالوزير أبو شجاع محمد بن الحسن الروذراوري ، وزير الخليفة المقتدي بأمر الله 467هـ، كان يجلس للمظالم بعد صلاة الظهر، وكان الحجاب ينادون في الناس لرفع قصص المظالم إلى الوزير للنظر فيها[52].

رد المظالم عهد الدولة النورية: ولما أفضى ملك الشام إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله[53] ابتنى له دارا في قلعة دمشق وسماها دار العدل ، وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة، وقد جاء إنشاؤها بسبب تزايد الظلم من عدد من كبار الأمراء في دمشق، وبخاصة أسد الدين شيركوه، وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة، كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض، لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل [54].

يقول ابن الأثير: فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟، والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي، فقالوا له: إن الناس إذ علموا هذا اشتطوا في الطلب.

فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، ففهم نور الدين ما جرى فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[55] .

وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعممها في غير دمشق، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم لا يطلب بذلك درهما ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله[56].

وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالمقال ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها

والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة [57]. وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق: ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم [58].

ومن صور رد المظالم في عهد نور الدين وسرعة استجابته للقضاء، أنه طلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً: يقوم المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ وأردف: يُحضر فرسي حتى نركب إليه: السمع والطاعة؛ " إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"[59]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له: امضِ إلى القاضي وسلم عليه وقل له: أني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع [60] .

ويوماً كان يلعب الكرة - هوايته المفضلة - في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له: إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه .

وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور: هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا: لا، فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي، وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه [61]. تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه.

و من صور عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى: أن إنسانا كان بدمشق استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلّما توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنصَف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك ؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى وكلّهم يبكي ويصيح .

فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك - وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه - فطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشّد من الأول فقال له صلاح الدين لِمَ تبكي ؟ قال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل

فمنه تعلّمناه [62]. ويمكن القول أن صلاح الدين سارع لرد المظلمة خوفا من انفلات الأمور من يده، بعد أن استقل بدولته الفتية الناشئة التي ورثت دولة نور الدين محمود .

وفي الأخير نقول عن هذه الصور المشرقة المشرِّفة في تاريخنا الإسلامي، التي هي محط فخر للإسلام والمسلمين، والتي أساسها وحي هذا الدين القويم، الذي تصل نفحاته إلى إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم، وقهر الظالم و الأخذ على يده، مهما كانت منزلته ومرتبته، والمسلم الصادق الحقُّ مدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الارتقاء إلى هذا الأفق الوضيء السامي، ليكون على مستوى هدي هذا الدين واتخاذ المواقف الجريئة في مواجهة الباطل ونصرة المظلومين، بقدر الإمكان و كل على حسبه ؛ وقد جاء الهدي النبوي معززا لهذه الخلائق البطولية النبيلة، مؤكدا نصر الله للأبطال المنافحين عن الحقِّ، وقد كانت سيرة الرسول ﷺ العملية مثالا حيا فذا في ذلك كما حكينا طرفا منه، وقد سلف ذكره، و المسلم الحقُّ مَن فَقِه هذه الصور كلها، وكان متمثلا لها في نفسه وفي سلوكه الاجتماعي ؛ بأن يبتعد عن مظاهر الظلم بشتى أنواعه و أشكاله مع الناس عامة .

الهوامش:

(1) -المظالم :لغة جمع مظلمة بكسر اللام -ما تظلمه الرجل - و أراد ظلامه ومظالمته أي ظلمه.

الظُّلْمُ بالضم: وضْعُ الشيءِ في غير مَوْضِعِه – انتقاص الحق – وتَظَلَّمَ: أي أحال التظلم إلى نفسه ومنه شَكَا من ظلمه .

والمَظْلِمَةُ بكسر اللامِ : ما تَظَلَّمَهُ الرجُلُ.

في الشريعة :عبارة عن التعدي من الحق إلى الباطل وهو الجور، وقيل هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد .

جمال الدين أبي الفضل ابن منظور، لسان العرب، ت ح أحمد عامر حيدر ،دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1424هـ 2003م ج 12 ص 370.

(2) -سورة الحديد، الآية 25.

(3) -سورة ص، الآية 26.

(4) - محمد بن فتوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تح: د. علي حسين البواب دار ابن حزم - بيروت ط2، سنة:1423هـ - 2002م، رقم 3139ص413.

(5) - محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، سنة 1407هـ 1987م، ج1 ص570.

(6) - سمي هذا الحلف بحلف الفضول باسم ثلاثة من زعماء جرهم وهم: الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة والفضل بن الحارث، وقيل الفضل بن شراعة والفضل بن وداعة والفضل بن قضاعة.

والفضول: جمع فضل وهي أسماء هؤلاء الذين تقدموا.

وقيل بل سمي كذلك لأنهم تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها وألا يغزو ظالم مظلوما.

وزعم ابن إسحاق أن هذا الحلف عقدوه على التناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم..وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب. أبي الفدى إسماعيل بن كثير، البداية و النهاية، ت ح: محي الدين مستو و علي أبو زيد أبو زيد، دار بن كثير دمشق ط2 1431ه -2010مج2، ص356.

(7) - سورة النساء الآية: 85.

(8) - أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي، مُصنف ابن أبي شيبة . تحقيق محمد عوامة، الدار السلفية الهندية القديمة.ج4 ص 543.

(9) - أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تح: د . محمد كمال الدين عز الدين علي دار عالم الكتب، بيروت، ط1، سنة 1417هـ ج2، ص195.

(10) - أبى الفداء إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية تح: مصطفى عبد الواحد دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت سنة 1396 ه - 1971 م ج4 ص25.

(11) - حمدي عبد المنعم، ديوان المظالم؛ نشأته وتطوره واختصاصاته مقارنة بالنظم القضائية الحديثة، دار الشروق بيروت، ط1 سنة 1403هـ 1983م ص 57.

(12) - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب دار الكتب العلمية تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، بيروت سنة 1424 هـ - 2004 م ط1 . ج3 ص 157.

(13) - أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري تاريخ المدينة المنورة (أخبار المدينة النبوية)، حققه فهيم محمد شلتوت، منشورات دار الفكر ج3 ص 182.

(14) -ديوان المظالم ، المرجع السابق، ص 57.

(15) -أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المنار ط1 سنة1419هـ 1999م ج3 ص 299. علي محمد الصَّلاَّبي، أبوبكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره ، ط 1 1422 هـ - 2001م ص 145.

(16) - ديوان المظالم ، المرجع السابق، ص 57.

(17) -محمد كرد علي، الإسلام و الحضارة العربية، القاهرة 1982سنة، ج2، ص111.

(18) - ديوان المظالم ، المرجع السابق، ص 59.

(19) - تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري دار الكتب العلمية بيروت ط1 1407ه -1987م ج 2 ص 350، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها

وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تح: علي شيري دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط1 سنة 1419 - هـ - 1998 م ج 8 ص 250.

(20) - تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2 سنة 1413هـ ج1 ص 281.

(21) - أبو الحسن علي بن محمد الموردي الأحكام السلطانية و الولاية الدينية دار الكتب العلمية بيروت ط1 1405ه - 1985م ص 78. النويري، المصدر السابق، ج6 ص227.

(22) - محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض ط1، 1414 هـ - 1993 م دار الكتب العلمية بيروت ،ج5 ص200.

(23) - النويري، المصدر السابق، ج 6ص 22.

(24) -ديوان المظالم، المرجع السابق، ص 66.

(25) - النويري، المصدر السابق، ج6 ص 24.

(26) - الكُنْيَةُ: اسم يطلق على الشخص للتعظيم نحو (أبي حفص) و (أبي الحسن) أو علامة عليه، و الجمع (كُنًى) بالضم في المفرد و الجمع و الكسر فيهما لغة مثل برمة و برم و سدرة و سدر، و اشْتَهَرَ عند المتأَخِّرين من أَنَّ الكُنْيَةَ ما صُدِّر بأَبٍ أَو أُمٍّ أَو ابنٍ أَو بنْت، وإِلاَّ فالأَكْثَرُ من الأَقدَمين يُخَرِّجُون مثل هذا على اللَّقَب. محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين الناشر دار الهداية، ج 4 ص 229.

(27) - ديوان المظالم، المرجع السابق ص 68.

(28) -الماوردي، الأحكام السلطانية ص 132.

(29) - الطبري، تاريخ الأمم و الملوك، ج3 ص242.

(30) - المصدر نفسه، ج 3 ص 355.

(31) - الماوردي الأحكام السلطانية ص 134.

(32) - تاريخ دمشق ،المصدر السابق، ج 9ص 140.

(33) -كرد علي ،المرجع السابق ج2 ص164.

(34) -ديوان المظالم المرجع السابق ص 72.

(35) - أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر ، تح : خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية – بيروت ط1 سنة 1424 هـ - 2004 مج3 ص36.

(36) - عبد الرحمن بن عمرو بن عبدالله بن صفوان النصري المعروف بأبي زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت ط1 سنة 1417هـ 1996م ج1 ص10.

(37) - أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح : إحسان عباس دار صادر – بيروت، ج2 ص 420.

(38) -البداية و النهاية، المصدر السابق، ج7 ص120.

(39) - علي محمد محمد الصَّلاَّبيَّ الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، المكتبة الإلكترونية الشاملة www.shamela.ws ، ج3 ص296.

(40) - نهاية الأرب، المصدر السابق ج 6ص227.

(41) - أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء دار الكتاب العربي - بيروت ط4 ، سنة 1405هـ ج 5ص283.

(42) - تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج 12ص 283.

(43) -ديوان المظالم، المرجع السابق ص 75.

(44) - تاريخ دمشق، المصدر السابق، ج 12ص 360.

(45) - الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت 748هـ تحقيق محب الدين أبي سعيد بن غلامة العمري، سير أعلام النبلاء دار الفكر للطباعة والنشر ط1 سنة 1417ه -1997م ج9 ص138.

(46) - الطبري، المصدر السابق، ج4ص438.

(47) - ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، المكتبة الإلكترونية الشاملة www.shamela.ws ، ج1 ص88.

(48) - أحمد بن عبد الله القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت ط 2، سنة 1985م ج1 ص51.

(49) -نفسه، ج1 ص 83.

(50) -الأحكام السلطانية، المصدر السابق، ص147. تاريخ دمشق، المصدر السابق ج 12ص 308.

(51) -عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الرحمن الشيزري ، المنهج المسلوك في سياسة الملوك، علي عبد الله الموسى ط 1 سنة 1407هـ 1987م ج1 ص 566.

(52) - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف و الترجمة القاهرة،ط2، سنة1981م ،ج5 ص 111.

(53) - هو محمود بن زنكي (عماد الدين) الملقب بالملك العادل: كان أعدل ملوك زمانه وأجلهم و أفضلهم، صالحا متعبدا يحتكم إلى الشرع ويقدر العلماء و كان معتنيا بمصالح رعيته، مداوما للجهاد، يباشر القتال بنفسه، موفقا في حروبه مع الصليبيين أيام زحفهم على بلاد الشام، وله الفضل - بعد الله – في نشر العلم وبناء المدارس، و التمهيد لما حققه المجاهد الكبير صلاح الدين الأيوبي من نصر على الصليبيين، مات بعلة الخوانيق في قلعة دمشق سنة 569هـ واشتهر بنور الدين الشهيد ولقد بني بجانب قبره مسجد ويقع اليوم في سوق الخياطين بدمشق .... سير أعلام النبلاء المصدر السابق، ج20، ص 531 ،

ابن الأثير، المصدر السابق، ج9 ص125.

(54) – عبد القادر بن محمد النعيمي ،الدارس في التاريخ المدارس تحقيق جعفر الحسني مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ط2 سنة 1427هـ 2006م ص 469. - محمد ابن أحمد ابن عثمان الذهبي تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1 دار الكتاب العربي، بيروت 1414، هـ1994م، ج39 ص379

(55) - علي محمد محمد الصَّلاَّبي، موسوعة الحروب الصليبية عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، المكتبة الإلكترونية الشاملة www.shamela.ws ص336.

(56) -شهاب الدين عبد الرحمان بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشامي المعروف بأبي شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية تح: إبراهيم الزيبق ،مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع، ط1سنة 1418هـ 1997م ج1ص62 .

(57) المصدر نفسه ج1ص62 .

(58) - علي محمد محمد الصَّلاَّبي، موسوعة الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 337

(59) - سورة النور، آية: 51

(60) - علي محمد محمد الصَّلاَّبي، موسوعة الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 306

(61) -المرجع نفسه ص 339 .

(62) - الروضتين، المصدر السابق، ج1ص365 .